

تجربتي في الترجمة وتدريس اللغة العربية

نبذة من تاريخ تدريس اللغة العربية في بولونيا

ياتوشي دانسكي

جامعة وارسو

قسم الدراسات العربية والإسلامية

يعود تاريخ تعليم اللغة العربية في بولندا إلى القرن التاسع عشر. كانت بولندا عندئذ تحت احتلال الدول الثلاث : روسيا وبروسيا والنمسا. آنذاك وفي مدينة فيلنا الواقعة في الأراضي التي كانت تحت السيطرة الروسية أسست جامعة جديدة كانت تدرس فيها طائفة من صفوة المثقفين البولنديين، من بينهم آدم ميتسكيفيتش أكبر شاعر بولوني. في هذه البيئة بالذات بدأت حركة التعرف إلى الثقافة العربية وتعليم لغتها. ومن أهم الشخصيات التي اشتركت في هذه الحركة يوزف سينكوفسكي الذي كان قد تعلم أكثر من عشرين لغة من ضمنها اللغة العربية وذلك قبل أن ينتهي من دراساته في الجامعة. لذلك قرر سكان مدينة فيلنا إرساله إلى الشرق الإسلامي لتعميق معرفته باللغات. وفعلا جمعت المبالغ اللازمة وسافر سينكوفسكي إلى كل من إيران وسوريا ولبنان ومصر. وعاد من سفرته بعد سنتين مستعدا لمنصب الأستاذ بالجامعة الجديدة في فيلنا. ولكنه رغم علمه الواسع وخبرته الشاسعة لم يعين في الجامعة لأسباب ذكرها رئيس الجامعة فقال : «إننا لا نحتاج إلى هذه العلوم الغربية التي تعالج قضايا الشرق البعيد بل إننا نهتم حاليا بأوروبا التي هي هدفنا الأول والأساسي». لكم تشبه هذه الكلمات آراء الكثيرين من المسؤولين في بولندا اليوم حتى انه يبدو كأننا لم نتطور على الإطلاق خلال القرنين الأخيرين. وهكذا خسر سينكوفسكي كما خسرت بولندا فرصتها الأولى للتعرف على ثقافات الشرق الإسلامي. أما سينكوفسكي فقد غادر وطنه وانتقل إلى روسيا وأسس هناك كرسيًا للدراسات الإسلامية. أصبح هذا العالم البولوني واحدا من أكبر المستشرقين في روسيا واشتهر هناك في نفس الوقت ككاتب قصص وروايات ذات طابع شرقي.

لا يعني ذلك أن حماس شبان فيلنا قد ذهب عبثاً أو بقي بدون أية نتيجة. فالدوائر الثقافية والأدبية في هذه المدينة شديدة التأثر بالشرق الإسلامي وخاصة منه العربي. يدل على ذلك أن أكبر شاعر بولوني آدم ميتسكيفيتش الذائع الصيت والذي كان صديقاً لسينكوفسكي كان قد قام بترجمة قصائد للمتنبى والشنفرى، وأن عدداً من الكتاب البولنديين قد قاموا بأول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى لغتنا، رغم أنها، بسبب الظروف السياسية، لم تنشر إلا بعد ثلاثين سنة أي في عام 1858.

الظروف نفسها ألزمت معظم البولنديين المهتمين بالشرق بالهجرة إلى خارج بولندا، ومن بينهم أذكر أشهر مستعرب فرنسي في القرن التاسع عشر - كازيميرسكي - مؤلف القاموس العربي الفرنسي ومترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية.

وفي الفترة حتى بداية القرن العشرين ظلت الدراسات العربية والشرقية عموماً مجال اهتمام الهواة الذين لعبوا دوراً مهماً في تطوير الدراسات الشرقية في أوروبا أمثال الأمير فاتسلاف شيفوسكي (تاج الفخر) الذي أسس في فيينا أول مجلة للدراسات الشرقية في أوروبا هي «مناجم الشرق» وكتب أول وصف لأجناس الخيول العربية نتيجة لسفرائه العديدة إلى الشرق العربي.

أما في أوروبا الغربية فقد اشتهر في القرن التاسع عشر كاتب بولوني هو كومت بوتوتسكي الذي وصف في كتبه العديدة باللغة الفرنسية سفرائه في الشرق الإسلامي والعربي. وهكذا يساهم بولندي، مرة أخرى، في الإبداع الأدبي الفرنسي.

القرن العشرون :

فازت بولونيا باستقلالها بعد الحرب العالمية الأولى في عام 1918. أصبحت جامعة ياغيلونية بمدينة كراكوف مركزاً أساسياً للدراسات عن الإسلام والعالم العربي. أسس هذه الدراسات الأستاذ تادوش كوفالسكي الذي كان قد درس في ألمانيا. كان الأدب العربي القديم مجال تخصصه العلمي (اشتهر كمحقق لديواني قيس وكعب بن زهير). وإلى يومنا هذا لا يزال مشهوراً في الدراسات عن الأدب العربي فنظرية كوفالسكي تشرح بناء القصيدة العربية. أما تخصصه الثاني فكان الإسلاميات. فهو أول من قدم للبولنديين معلومات دقيقة وصحيحة عن الإسلام في كتابه على طرق العالم الإسلامي (صدر في عام 1932). وفضلاً عن جهود الأستاذ كوفالسكي بدأ بحث العلاقات بين

العالم العربي وبولونيا وبرزت سلسلة النصوص العربية لتاريخ بولونيا. وبعد الحرب العالمية الثانية واصل هذا العمل تلميذ كوفالسكي - الأستاذ تادنوش ليفيتسكي المتوفى عام 1995 .

قسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة وارسو :

إلى جانب كرسي الدراسات العربية في كراكوف يوجد بعاصمة بولونيا وارسو قسم للدراسات العربية والاسلامية. حاليا يوجد بهذا القسم أكبر مركز لمثل هذه الدراسات في بولونيا. يعود تاريخه إلى بداية الستينيات. ففي هذه الفترة، وبعد التطورات السياسية في مصر جمال عبد الناصر، تغيرت سياسة بولونيا تجاه العالم العربي. ونتيجة لهذا التغير سمحت السلطات الشيوعية بفتح كرسي للدراسات العربية بعاصمة بولندا - وارسو في عام 1964 . كان مؤسس هذا الكرسي أستاذي يوزف بيلافسكي.

كان برنامج الدراسة في البداية استثناء لمثل تلك الدراسات في الغرب. أي كانت تشمل كلا من اللغات الشرقية الإسلامية الثلاث : العربية والفارسية والتركية. إضافة لذلك كان خريجو القسم يحصلون على معلومات أساسية عن الإسلام، ويتعرفون إلى العرب والأدب العربي الخ. هذا البرنامج الدراسي ما زال مطبقا حتى بداية الثمانينات عندما أصبحت رئيسا لهذا القسم الذي أصبح من ذلك التاريخ يسمى قسم الدراسات العربية والاسلامية.

قررت أن نحدث تغييرا جذريا لكي تصبح الدراسات مناسبة لاحتياجات الوقت الحاضر. ركزنا الدراسة أولا على لغة واحدة هي العربية ولغة شرقية ثانية حسب اختيار الطالب وتخصصه. وشرعنا في إعداد عدد من التخصصات مثل العلاقات الدولية والتاريخ المعاصر والإسلام اليوم الخ.

حياتي العلمية :

أما أنا فكانت من ضمن أول دفعة للطلاب الذين تخرجوا من هذا القسم. تعلمت اللغة العربية على يد السيد حنا مكركر - وهو لاجئ فلسطيني أقام في بولونيا منذ الخمسينات وعاد حاليا إلى وطنه بعد التقاعد. وهو الآن يعيش بالقرب من بيت لحم وأتمنى أن يكون بصحة جيدة، فهو الذي زرع في نفوسنا حبا عميقا للغة الضاد.

خلال دراساتي في الجامعة تابعت البرنامج الكلاسيكي الذي يشمل اللغات الشرقية المذكورة أعلاه وعلاوة على ذلك يشمل اللغة الأوردية.

حرص الأستاذ يوزف بيلافسكي على أن يربط تعليم اللغة العربية بمعلومات أساسية عن الإسلام - دينا وحضارة - . لذلك شمل برنامج الدراسة (ولا يزال يشمل) تاريخ العرب والإسلام وتقديم الإسلام. وهكذا كنا، بعد الإنتهاء من الدراسة، نحصل على معلومات كافية عن كل جوانب الحياة في العالم الإسلامي العربي. أما أنا فقد اخترت اللسانيات، لتخصصي وأعددت رسالة ماجستير عن العناصر العربية في لغة أوردو. أما الدكتوراه فكرستها لمعالجة الأثر الهندي في علم الأصوات عند سيبيويه.

تجربتي في الترجمة :

بعد الدراسة والحصول على درجة الماجستير كانت فكرتي الأولى تتمثل في أن أنقل إلى اللغة البولندية ذخائر الأدب العربي. اعتبرت واجبا أساسيا أن نعرف البولنديين بالأدب العربي - القديم والمعاصر. وتحقيقا لهذا الغرض بدأت أترجم الروائع الأدبية العربية إلى لغتي. ولكنني لم أختَر المؤلفات التي تعتبر الأفضل في تاريخ الأدب العربي بل المؤلفات التي رأيتها تلائم أو تناسب عقلية القارئ البولوني. لذلك كان أول كتاب ترجمته هو طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم الأندلسي. ولاقى هذا الكتاب اهتماما كبيرا من القراء البولنديين.

لهذا صرت أعتقد أنه من الضروري أن نقدم، في البداية، للقراء الأدب الذي هو قريب من تصوراتهم لكي نثير اهتمامهم. وهذا هو السبب في شهرة كتاب ألف ليلة وليلة في الغرب كان هذا الكتاب متجانسا مع الذوق الأدبي الأوروبي ومع التصورات الأوروبية عن الشرق العربي.

بعد تقديم هذا الكتاب المشهور للقراء البولنديين قررت أن أقوم بترجمات من الأدب المعاصر فنقلت إلى البولندية رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم و«قصص قصيرة» لغسان كنفاني. وفي كلتا الحالتين غيرت عنوان الكتاب. سميت عودة الروح «بيت الآمال المفقودة» والقصص القصيرة سميتها «رأس الأسد الحجري» وذلك لأن لعنوان الكتاب دورا هاما في جذب اهتمام القراء فلا بد أن يكون العنوان منسجما مع روح اللغة والعصر والمجتمع الذي يقدم الكتاب له وفيه.

بعد أن أصبح هذا الأدب معروفا للبولنديين كان من الممكن تقديم الأدب العربي الكلاسيكي. وهنا وقع اختياري على الشعر العربي القديم. صدرت لي ثلاث مجموعات :

الأولى تحتوي على المعلقات السبع الجاهلية مع شروح ومقدمات عن الشعر الجاهلي والشعراء أنفسهم (1981). وفي عام 1988 واستثنافاً لهذا الجهد نشرت كتاباً يحتوي على مختارات من الشعر العباسي. وأخيراً في عام 1995 أصدرت مجموعة في 600 صفحة شملت الشعر العربي الكلاسيكي من مختلف عهوده.

وفي نفس الوقت واصلت ترجمة النثر العربي القديم واخترت مقامات الهمداني التي صدرت عام 1982. لماذا هذا الاختيار؟ لماذا لم أختَر مقامات الحريري المشهورة؟ مرة أخرى أخذت بعين الاعتبار القارئ الذي يفضل الأحداث عن جمال اللغة. فمقامات الحريري بديعة لغوياً ولكن في مقامات الهمداني نجد قصصاً أجمل.

في نهاية تجربتي رأيت مناسباً أن أقترِب من كتب مهمة فعلاً وصعبة. فبدأت بتحضير الأحاديث النبوية المختارة. ورغم كل تحفظي لاقَت هذه الترجمة إقبالاً واسعاً عند القراء في بولندا وطبع الكتاب مرتين في عام 1995 و 2000. دفعني هذا إلى التفكير في ترجمة صحيح البخاري كله. لكن هذا العمل لا أستطيع أن أنجزه بدون مساعدة. وهناك عمل آخر قمت به خدمة للدراسات الإسلامية وهو كتاب يتحدث عن القرآن الكريم ويقرب للقارئ البولوني هذا الكتاب العظيم. ذلك أنني لاحظت أن ترجمة معاني القرآن التي قام بها أستاذي يوزف بيلافسكي كانت غير مفهومة وغامضة على القراء. لذلك ألفت كتاباً تحت عنوان قصص قرآنية يقدم معاني القرآن بطريقة سهلة وممتعة.

تدريس اللغة العربية الفصحى أم اللهجات ؟

هذا هو السؤال الذي نطرحه باستمرار مع طلابنا وفي المناقشات مع أصدقائنا العرب. هل نتعلم الفصحى أم الدارجة أم الاثنين - الدارجة والفصحى - في نفس الوقت ؟ لنفرض أننا ندرس الفصحى فحسب : ما هي نتيجة مثل هذه العملية؟ فالطالب، خريج الجامعة، يعرف اللغة الفصيحة جيداً ويتكلمها بطلاقة، يحفظ القرآن ويعرف الأدب القديم، قرأ مؤلفات الجاحظ والطبري وأبي حيان التوحيدي. هل تنصوره في سوق من أسواق العالم العربي يحاول بيع التفاح أم البقدونس؟ لا، أبداً. لنتصوره يصل لأول مرة إلى أي مدينة عربية ويكتشف أن هؤلاء الذين درس حضارتهم خلال سنوات طويلة يتكلمون لغة غريبة لا يفهمها على الإطلاق. لا شك إذن أن كل خريج الدراسات العربية لا

بد له أن يعرف لهجة من اللهجات العربية أو أن يكون له علم بالوضع اللغوي في العالم العربي المعاصر. لسوء الحظ ليست لنا منشورات تقدم للطلاب معلومات تفصيلية عن هذا الوضع. كان أول محاولة لوصف الحالة الاجتماعية اللغوية في العالم العربي المعاصر كتاب ف. فيشير وأوتو يسترو. والكتاب الثاني من تألوفي صدر عام 1989. أما الكتاب الأخير فهو مقدمة إلى علم اللهجات العربية لعالم إيطالي أو دوران. هذا كل ما في الأمر، أما الدراسات عامة عن هذه القضايا فليست عديدة. لنذكر كتاب كيس فيرستينج من هولندا وكتابي اللغة العربية المعاصرة ولهجاتها وقد صدر عام 2000. رغم كل التحفظات من جانب المثقفين العرب لا مفر من تعليم اللهجات العربية. وليس لهذا التعليم أي جانب سياسي أو أية محاولة لنشر اللهجات أو رفع مكانتها الاجتماعية.

في جامعة وارسو تدرس منذ سنوات عديدة لهجة من اللهجات العربية وبجانبها تقديم لعلم اللهجات العربية. وهكذا فإن كل خريج من خريجي الدراسات العربية تكون له خلفية أساسية للتفاهم مع الناس في العالم العربي.

برنامج الدراسة بجامعة وارسو :

تتضمن الدراسة بجامعة ثلاث عناصر هي : اللغة والنطق والخط.

أما اللغة العربية فتدرس على امتداد خمس سنوات. في السنوات من الأولى إلى الثالثة يتعلم الطلبة التحدث باللغة الفصحى ويستمرّون بعد ذلك لمدة سنتين يتمرنون على المواضيع المتخصصة. أما قضية النطق العربي فنعتبرها خاصة للغاية وذلك لأن النظام الصوتي العربي يختلف جذرياً عن النظام الصوتي البولوني. تبدأ التمارين على النطق مباشرة في السنة الأولى. ويحتوي هذا التعليم على قسم نظري تقدم فيه للطلبة معلومات عن البنى الصوتية للغة العربية بالمقارنة مع اللغة البولونية. ويحتاج مثل هذا التناول لدراسات علمية تقارن بين اللغتين. ونحن حالياً بصدد تطوير مثل هذه الدراسات.

في اعتقادي هذه هي الطريقة الوحيدة لتعليم النطق العربي الصعب على الأوروبيين، في مستوى مقبول. طبعاً هناك صعوبات عديدة نواجهها أثناء التعليم. تتمثل الصعوبة الأولى في اختيار نوع النطق، خاصة أنه لا يوجد في العالم العربي أي نظام نطق مطبق عموماً. ولذلك نختار طريقة النطق القريبة من التجويد القرآني. كما أننا نستعرض للطلبة مختلف أنواع النطق في جميع أنحاء العالم العربي. ولا مفر من مثل هذه الطريقة لأن الطلبة سوف يسافرون في اتجاهات مختلفة ولا بد لهم أن يكونوا مستعدين لأنواع التكلم بالعربية المختلفة.

إن الخط العربي أو الكتابة العربية ليست صعبة لمن يتعلم اللغة العربية. لماذا إذا يدرس الطلبة الخط العربي؟ السبب الأول هو نتيجة لخبرة الطلبة في الكتابة بالحروف اللاتينية. فإن بكل طالب ميلا لنقل طرق الكتابة اللاتينية للعربية ونتيجة لذلك تصبح طريقة كتابته رديئة للغاية. والسبب الثاني يعود إلى قيمة الكتابة العربية ودورها الحضاري، فإننا لا نريد ألا يستطيع الطالب إبراز هذه القيم.

الترجمة :

يحتوي برنامج الدراسة على دروس خاصة مكرسة لترجمة النصوص الأدبية من اللغة العربية إلى البولونية. نهدف بهذه الدروس إلى تربية المترجمين الماهرين من اللغة العربية إلى البولندية وخاصة في مجال الأدب.

وفي نهاية عرضي لتجربتي لا بد أن أثير موضوعا مؤلما لحد ما وهو موضوع الترجمة من البولندية إلى العربية. في هذا المجال لا نلاحظ تقدما ملحوظا. تقريبا كل الجهود هي من عمل رجل واحد هو الدكتور هاتف الجنابي - مدرس بقسمنا. وعليه فإننا نحتاج إلى جهود مكثفة في تنسيق الترجمة من اللغتين. وعلى الرغم من أن كل ترجمة كانت ولا تزال عملا شخصيا لإنسان عبقري فإن هذا الإنسان لا يستطيع أن ينجز عمله بدون مساعدة من قبل منظمات دولية مثل هذه المنظمة.